لوحة للفنان: فان جوخ

فى التعامل مع الأفق غير المحدود للماء لا تنتظر الملل بل الدهشة والخطر:

صيد البحر

د. سعيد توفيق

لماذا صيد البحر بالذات؟ اول خبرتى بالصيد كانت فى الترع، ومنها إلى النيل. اسماك الترع صغيرة، ولم يكن الصيد بذاته فى البدء هو ما يعنينى، كان الصيد مجرد وسيلة او مناسبة للترويح عن النفس: مكان هادئ على ضفة ترعة حيث تجلس طلبًا لراحة البال وهدوء النفس، ولا يخلو الأمر من متعة التسرية أو التسلية باصطياد سمكة صغيرة بين حين وآخر. ولكن ما ان تمارس تجربة الصيد حتى تأخذك وتستولى عليك، وتبدأ فى إدمانها، حتى إنك تطلب المزيد منها باستمرار. وهكذا لم أجد اقنع بصيد الترع فى دلتا مصر، وقصدت النيل بصحبة بعض العارفين بصيد النيل وفنونه ممن تعرفت عليهم بالمصادفة او قصدًا. وشيئًا فشيئًا عرفت ان صيادى النيل الحقيقيين ــ اولئك المولعين حقًا بتجربة الصيد، ولا ينظرون إليها على انها مجرد وسيلة للتسلية– لا يقتنعون بالصيد إلا كلما كان التوغل اكثر باتجاه الجنوب؛ حيث إن النيل تشتد صلابته وخصوبته كلما اتجهنا جنوبًا باتجاه المنبع، بدءًا من مناطق الصيد المعروفة بمحافظة المنيا فصاعدًا. فلقد ادرك هؤلاء مدى التلوث الذى اصاب النيل باعتباره جزءًا من التلوث والفساد الذى اصاب حياتنا فى مصر فى مجملها، فقصدوا الجنوب الأكثر بكارة على ما فيه من مخاطر يتعرضون لها لوجود الذئاب وبنات آوى فى تلك المناطق المهجورة من شرق النيل؛ ولذلك تراهم يشعلون النار فى الليل عندما يسمعون عواء الذئاب.

اما صيادو النيل الاكثر قدرة على التوغل فيرتحلون إلى الصيد فى بحيرة ناصر، وهى رحلة شاقة وتتطلب معدات وأدوات صيد مكلفة؛ لأن الأسماك هناك اكبر حجمًا واكثر توحشًا؛ ولذلك يأتى إلى هذه البحيرة هواة الصيد المخضرمون، حتى من بلدان اجنبية.

●●●

ومع ذلك، فإن صيد البحر شىء آخر... البحر أفق ممتد إلى ما لا نهاية، خاصةً البحر المنفتح على المحيط كبحر عُمَان حيث خبرت صيد البحر أول مرة. البحر هنا لا يختلف عن النيل والنهر عمومًا من حيث امتداده الأفقى اللانهائى فحسب، وإنما أيضًا من حيث عمقه أو امتداده الرأسى. وفضلاً عن ذلك، فإن أسماك البحر وكائناته أكثر تنوعًا، فمنها ما نعرفه ومنها ما نكتشفه كلما أوغلنا فى الزمان والمكان، أعنى كلما أوغلنا فى البحر وطالت خبرتنا به. ولصيد البحر فنونه وأدواته، فمنه الصيد بالشباك لدى الصيادين الذين يحترفون الصيد بغرض التجارة والتعيش، ومنه الصيد بالتسقيط أو الجر لدى الهواة غالبًا: أما التسقيط casting ، فيعنى أن تسقط من قارب ثابت خيطًا يتدلى من ماكينة الصيد فى أماكن مخصوصة، أعماقها صخرية غالبًا حيث توجد أعشاش الأسماك. وأما صيد الجر trolling، فيعنى أن تترك الخيط يتدلى من ماكينة صيد مخصوصة إلى مسافة معلومة وعلى عمق معلوم، اثناء سريان القارب بسرعة محسوبة تتفاوت حسب نوع الأسماك المراد صيدها. وماكينات صيد الجر اغلى كثيرًا من ماكينات صيد التسقيط، حتى إن الواحدة منها تبلغ أحيانًا آلاف الجنيهات، ولك أن تتخيل كم تبلغ تكلفة العديد من هذه الآلات التى يستخدمها المرفهون فى رحلة صيد واحدة. هذا المشهد يسخر منه الصياد العمانى الذى لا يعتمد إلا على يديه، على بدنه، وخيط وسنارة وطعم حى يأتى به من البحر أو طعم مصطنع يشتريه بثمن زهيد: إنه صيد الفطرة. كم رأيت هذا الصياد العمانى المفطور يقتنص الأسماك الضخمة المتوحشة بتلك الطريقة البدائية، ولقد ساعدنى أحدهم يومًا على أصطياد واحدة من تلك الأسماك التى يسمونها فى بحر عُمان والخليج "كنعد"، ويسميها صيادو البحر الأحمر "دراك" (وتسمى بالإنجليزية king fish أى ملك السمك). أذكر هذا الصياد العمانى من قرية تسمى "داغمر"، وهى قرية من قرى عمان التى يعيش أهلها على الصيد. أما "داغمر" هذه فلا يمكن الوصول إليها إلا عبر طرق جبلية شديدة الوعورة ترتفع

ارتفاعًا شديدًا بمحاذاة البحر دون أسوار جانبية تحد الطريق، فتجد القرية ترقد تحت سفح الجبل وكأن أهلها لم يعد لهم ملجأ سوى البحر، فبلوغه وارتياده مهما كان سوء حاله واضطرابه، يبقى على الأقل أيسر من بلوغ تلك المدن الرئيسة النائية الواقعة وراء الجبل التى لا يمكن بلوغها إلا عبر تلك الجبال شديدة الوعورة. أذكر هذا الصياد العمانى الأصيل، وهو قريب لصديقى عبد الله الرحبى، قصدنا ذلك الصياد بصحبة الأصدقاء: خميس البلوشى وسيف الرحبى شاعر عمان والفنان المصرى محمود عبد العاطى(رحمه الله). كان يطلقون على هذا الصياد العمانى من آل الرحبى اسم "الوتد" وما شابه ذلك من الأسماء، وكان اسمًا على مسمى؛ إذ كانت عضلات ذراعه مفتولة قوية من طول شد الأسماك العفية من بين تلك الأخوار الجبلية العميقة. هذا الصياد أول من علمنى صيد الكنعد العملاق فى الصباح، سمكة عملاقة بحجم شخص بالغ، تحتاج إلى مراودة تبلغ نصف الساعة على الأقل حتى يمكن السيطرة عليها. ذكرتنى هذه التجربة بتجربة الصياد بطل رواية "العجوز والبحر" لهمنجواى.. حقًا لم تكن تجربتى آنذاك تملك شيئًا من خصوصية التجربة الوجودية لدى بطل رواية همنجواى، ولكنها كانت تملك كل ما فيها من فطرة وتلقائية. أما فى المساء، فقد قصدنا الصيد بالشباك الذى لا يعرفه الهواة، فأمضينا قرابة ساعة فى فرد الشباك ثم لمها بعد ساعة أخرى، فوجدنا صيدًا وفيرًا من أسماك التونة خاصةً ناء القارب بحمله، حتى إننا لم نعرف ماذا نفعل بهذا الكم الهائل من الأسماك الذى لم نجد مكانًا يتسع لحفظه، فتركنا معظمه على الشاطئ أسفين، ليجمعه فى الصباح صيادو القرية الذين لم يحظوا بصيد وفير.

●●●

فى مثل هذا البحر الخصب العفى لا تنتظر فى ملل الأسماك مثلما هو الحال فى صيد النيل. كما أنك فى مثل هذا البحر تتوقع أن تجد أنواعًا لا حصر لها من الأسماك. بل إنك أحيانًا تصطاد كائنات بحرية غير مألوفة: حدث لى هذا فى مناطق بكر مشابهة فى البحر الأحمر، ففى إحدى المرات عَلَقَت بسنارتى نجمة كبيرة من نجوم البحر ما زلت احتفظ بها إلى يومنا هذا. وفى مرة أخرى _ كنت فيها بصحبة صلاح الطويل الذى عمق خبرتى بالبحر التى اكتسبتها فى عمان- وقعنا على واحد من فصيل ضخم

زينب الذى نشأت وعشت فيه حتى فترة شبابى كما عاش أبائى وأجدادى. كان صلاح الطويل مصورًا فوتوغرافيًا ذائع الصيت، حتى إنه كان من الميسورين فى الحى، وقد كان ينفق كل ما يجمعه من مال على هواية الصيد. كان يرتاد طريق البحر الأحمر منذ خمسين عامًا حينما لم يكن هذا الطريق ممهدًا بعد، فكان يقطع رحلته إلى الغردقة فى يوم كامل. ما زال يقطع هذا الطريق أسبوعيًا إلى يومنا هذا بعد أن صار ممهدًا سلسًا، وبعد أن بلغ هو الثمانين من عمره، ولكنه ما زال عفيًا على نحو يذكرنى "بالوتد العمانى" .. صياد داغمر من آل الرحبى. أيقنت أن كل الصيادين محترفين وهواة ممن عاشوا على البحر أو عاشوا معه بالأحرى، كان فيهم شيء من عنفوان البحر. كان البحر الأحمر هو عالم صلاح الطويل! وكل موجود بشرى حقيقى لا بد أن يكون له عالمه الخاص، وهذا أمر لا علاقة له بوضعه أو مكانته فى المجتمع، فكم من موجود بشرى ليس بموجود حقًا، فهو رغم وضعه ومكانته الاجتماعية ليس له ركن فى هذا العالم يألفه ويأوى إليه .. إنه "الموجود فى كل مكان دون أن يكون فى أى مكان" على حد تعبير هيدجر.

●●●

كنا نسافر أول الليل حتى نقصد بغيتنا عند السحر، ونرتاد البحر عند أول ضوء. كانت بغيتنا غالبًا هى رأس الجمشة التى كانت ولا زالت تسمى "كِن الجمشة"، والكن عند الصيادين هو ذلك الموضع من البحر الذى يمكن أن يأوون إليه عندما يهيج ويضطرب؛ فجبال البحر وجزره أو شعابه المرجانية تكتنفه، حتى إنها تكسر أمواجه الهائجة لتحمى من يحتمى بها ويكّن خلفها. كانت الجمشة بأسرها "كِنًا" ضخمًا هادئًا مواتيًا للصيد وللمأوى. كنا نسافرإلى هذا الموضع حينما كان غير مطروق بعد: كنا نعرف المدخل إليه من الطريق العمومى من خلال علامات وضعها نفر من حرس الحدود ليستدلوا بها، كانت هذه العلامات غالبًا برميلين تليهما بعض الحجارة التى تحدد مدخل "المدق" الذى يبلغ طوله حوالى اثنى عشر كيلو مترًا تمتد من خلال فرعين

النصف العلوى من بقرة البحر يبلغ أحيانًا مائتى كيلو جرام... تُرى أين يكون النصف السفلى، وتُرى كم يكون حجم الحيوان البحرى الآخر الذى التهم هذا النصف فى قضمة واحدة؟

الجمشة، وبينما هما يتسامران أثناء الليل (فى القارب الزودياك فى نفس المكان الذى نقصده) شق صمت المكان وسكون البحر – أو "كِن الجمشة" كما يسمونه– جلبة شديدة: إذ شاهدا نصف سمكة أو وحش بحرى هائل من نوع بقرة البحر يرتفع فى السماء ليسقط مرة أخرى فى البحر... إن هذا النصف العلوى يبلغ أحيانًا مائتى كيلو جرامًا... تُرى أين يكون النصف السفلى، وتُرى كم يكون حجم الحيوان البحرى الآخر الذى التهم هذا النصف فى قضمة واحدة. لا بد أنه كان من نوع القرش أو بقر البحر العملاق.

وفى أحيان أخرى كان يضطلع بهذه الحكايات ربان القارب ليسرّى عنا حينما كان يمتنع البحر عن العطاء، فيُقَال إن البحر قد "منَّع"، ومن ثم فقد امتنع الصيد. وحينما يمتنع الصيد تحلو الحكايات عن الصيد... تلك حكمة الحياة: فالحياة لا معنى ولا قيمة لها بدون هذه المساحة الهائلة من الخيال، من التوقع والانتظار والاحتمال والتمنى لشئ غير موجود هنا والآن، ولكنه يمكن أن يوجد! حكى لنا الربان أنه بينما كان أحد أجداده من الصيادين فى هذا الموضع الذى نحن فيه الآن، وبينما كان يبحث عن رزقه فى النهار انشق البحر فى جلبة هائلة وساد ظلام الليل بدلاً من النهار... لقد ابتلع القارب الصغير حيوان بحرى هائل، ولما وجده شيئًا يستعصى على الهضم، لفظه مرة أخرى، فكانت تلك اللفظة هى الفاصل بين الظلمة والنور، وبين الليل والنهار. قد يكذب عقل المرء تلك الروايات، ولكن إلقاء نظرة بسيطة على التاريخ يجعلنا نصدقها؛ فيكفى أن نلقى نظرة على متحف الأحياء البحرية فى الغردقة لنعرف كم كان حجم أسماك القرش التى كانت موجودة فى تلك المنطقة، ولنعرف كيف كان شكل السمكة المسماة "عروسة البحر"، وهى حيوان بحرى نصفه العلوى جسم أنثى بشرية، ونصفه السفلى جسم سمكة بحرية. حتى هذه التوليفة المدهشة العجيبة تطلق لنا عنان الخيال، وتطلعنا على ما هنالك من قرابة بيننا وبين مخلوقات الطبيعة. هذا الجانب المتوحش الخفى من الطبيعة يمتعنا وكأننا نحِنُّ بذلك إلى أصلنا، إلى أصل

لها من الأسماك. بل إنك أحيانًا تصطاد كائنات بحرية غير مألوفة. حدث لى هذا فى مناطق بكر مشابهة فى البحر الأحمر، ففى إحدى المرات علَقَت بسنارتى نجمة كبيرة من نجوم البحر ما زلت احتفظ بها إلى يومنا هذا. وفى مرة أخرى ـ كنت فيها بصحبة صلاح الطويل الذى عمق خبرتى بالبحر التى اكتسبتها فى عمان- وقعنا على واحد من فصيل ضخم يسمى اللسَّاع، لما له من ذيل قوى سام أحيانًا يلسع به أعداءه لسعة مميتة. كنا قد تركنا "المدَّادة" فى المساء، لعلها تحصد لنا رزقًا تدركه حين تلمها فى الصباح. وتلك عبارة عن خيط قوى مفرود لمسافة مائتى متر على الأقل تتدلى منه خيوط بها سنانير مطعومة بسمك حى أو شبه حى قد اصطدناه لتونا. حينما أتينا فى الصباح للم "المدادة" فوجئنا أن المدادة نفسها قد علقت بشىء ما، فظننا أول الأمر أنها قد علقت بصخرة، فحاولنا تسليكها دون جدوى، ورأينا أن نجرها بقوة حركة القارب المتولدة عن قوة الموتور الذى يحركه، وعندما بدأ القارب فى التحرك بدأت المدادة تستجيب لتلك الحركة ولكن بصعوبة. ظننا فى بادئ الأمر أن الصخرة العالقة بدأت تتحرك معنا، ولكننا شيئًا فشيئًا اكتشفنا أن هذه الصخرة العالقة لم تكن سوى حيوان بحرى ضخم بحجم القارب نفسه الذى كنا نعتليه (وهو من نوع "الزودياك")، ولم يكن أمامنا مفر سوى قطع خيط المدادة المرتبط بالقارب، خشية أن يلسع هذا الحيوان الضخم القارب بذيله فيفرغ هواءه ويعرضنا للغرق.

وأسماك البحر عفية بحسب بكارة البحر وعنفوانه. حكايات هذه الأسماك هى القصص التى يتسلى بها هواة الصيد أثناء رحلتهم إلى حيث يمارسون هوايتهم. هذه الحكايات لها أهميتها أثناء الرحلة التى قد تطول: فهى تعمل على تهوين المسافات الطويلة، وتمنى النفس بصيد وفير أو حافل بالمغامرات الشبيهة بتلك التى تُروى فى الحكايات. أهم من عرفتهم من الحكائين فى هذا الصدد: صلاح الطويل. ظل هذا الرجل طوال عمره وحتى الآن فى حى السيدة

تذكرت تجربة الصياد بطل رواية "العجوز والبحر" لهمنجواى.. حقا لم تكن تجربتى آنذاك تملك شيئا من خصوصية التجربة الوجودية لدى بطل رواية همنجواى، ولكنها كانت تملك كل ما فيها من فطرة وتلقائية

هذا الموضع حينما كان غير مطروق بعد: كنا نعرف المدخل إليه من الطريق العمومى من خلال علامات وضعها نفر من حرس الحدود ليستدلوا بها، كانت هذه العلامات غالبًا برميلين تليهما بعض الحجارة التى تحدد مدخل "المدق" الذى يبلغ طوله حوالى اثنى عشر كيلو مترًا تمتد من خلال فرعين فى الرمال، قبل أن يبلغ الطريق غايته عند رأس الجمشة. الطريق من السيدة إلى الجمشة طويل، وأثناء الرحلة فى الليل تحلو الحكايات التى تعين على السهر والطريق. لماذا تحلو الحكايات فى الليل دون النهار؟ يحتاج هذا الأمر إلى تأمل بذاته. فحتى الحكايات التى كانت تُحكى لنا ونحن أطفال، كانت تحكى لنا دائمًا فى الليل قُبيل النوم، ما الصلة بين الحكايات والليل والنوم؟ ربما كان الخيال هو السر هنا: الحكاية تقوم على الخيال، ولحظة ما قبل النوم هى لحظة الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الأحلام. كذلك فإن الليل له سحره الخاص، فهو يبدو دائمًا وكأنه ينطوى على سر لا يريد أن يفصح عنه ويتركه لخيالنا، إنه يتركنا نحلم بأن يأتى الصباح بما حلمنا به. فى الليل ينام الوجود ويسكن، وكأنه يدعونا إلى التأمل والحلم والخيال. ولكننا فى النهار نكون غالبًا مشتتين ومأخوذين بعيدًا عن ذواتنا فى غمار أهداف الحياة الجزئية العابرة التى لا نشعر فيها بوجودنا الحقيقى. فى الليل نكون فى مواجهة الوجود الذى يناديا، أما فى النهار فإننا نكون فى غمار العالم الذى نتوه فيه. لا أدرى لماذا تداعت علىَّ تلك الخواطر حينما تذكرت ترحالى بالليل لأجل الصيد فى أماكن نائية. فى إحدى هذه الرحلات إلى الغردقة توقفنا كعادتنا للاستراحة قرابة الفجر، فبدأ صلاح الطويل حكاياته وكأنه يسَّرى عنى ليشجعنى على مواصلة الطريق ومغالبة الرغبة فى النوم، فحكى لى أنه فى إحدى المرات التى قصد فيها "الجمشة" التى كنا نقصدها آنذاك .. حكى لى أنه كان بصحبة زوجته سعاد (الصيادة الماهرة) فى يوم من تلك الأيام التى كان البحر الأحمر فيها بكرًا حتى رأس بشرية، وتصفه السفلى جسم سمكة بحرية. حتى هذه التوليفة المدهشة العجيبة تطلق لنا عنان الخيال، وتطلعنا على ما هنالك من قرابة بيننا وبين مخلوقات الطبيعة. هذا الجانب المتوحش الخفى من الطبيعة يمتعنا وكأننا نحنُّ بذلك إلى أصلنا، إلى أصل الوجود وطبيعته المتوحشة الغفل. فى كل مرة أذهب فيها إلى الغردقة بغرض الصيد أمنى نفسى بصيد شبيه بتلك الكائنات البحرية المُتحفية، ولكن هيهات! تلك حكمة الحياة، فالتاريخ لا يرتد إلى الوراء... إنه يتجه إلى الأمام دائمًا، وبذلك يفقد دائمًا شيئًا من بكارته وعنفوانه. تلك هى حكمة التاريخ: إن كل شئ يبدأ قويًا سوف يضعف بالتدريج.

●●●

ومع ذلك، يظل للصيد متعته: متعة التمنى والتوقع والترقب لذلك المجهول الذى يمكن أن يأتى فى أية لحظة؛ إنه يظل إمكانية دائمة قابلة للتحقق، وليس لنا سوى أن ننتظر على أمل تحقق تلك الإمكانية. ولذلك يُقَال دائمًا إن الصيد رزق، إنه خير نرجوه ونتمناه ولكننا لا نعرف متى وكيف يأتينا. إن متعة الحياة نفسها تكمن فى هذا المعنى العميق الذى نعايشه بصورة مكثفة فى خبرة الصيد؛ فلو قُدِّر لكل إنسان أن يعرف رزقه ونصيبه سلفًا، لفقدت الحياة نفسها معناها ولم يعد فيها أية متعة أو بهجة. فخبرة الصيد تقدم لنا صورة بسيطة ولكنها مكثفة من خبرة الحياة. يعرف كل من مارس خبرة الصيد هذا ويؤمن به: أن الصيد رزق ونصيب. كم من مرة خبرت هذا الأمر بينما كنت أمارس الصيد بصحبة الأصدقاء فى عُرض البحر.. كثيرًا ما كان الصيد الوفير من حظ واحد منا؛ لا لأنه أكثر الصحبة خبرة ومهارة بالصيد، وإنما لأنه أكثرهم حظًا ونصيبًا فحسب .. ليس هناك تبرير للحظ أو النصيب، ولا ينبغى أن نبحث عن تبرير له .. إنه مسألة إيمانية خالصة. أذكر أننى خبرت هذا الأمر آخر مرة عندما كنت برفقة أصدقاء الصيد فى البحر الأحمر: لم يكن توقيت رحلتنا آنذاك فى موسم الصيد، فضلاً عن أننا عندما رسونا فى عمق البحر لم يكن التوقيت ملائمًا؛ إذ كان الوقت ظهرًا، ومن المعروف أن هذا الوقت هو أسوأ أوقات الصيد؛ لأن أفضلها ما قبل الغروب والشروق وبعض سويعات الليل فى أوقات ومواسم معلومة.

كان كل شئ آنذاك غير موات للصيد بما فى ذلك الطقس؛ إذ هبت رياح أهاجت أمواج البحر وجعلتنا نلجأ إلى منطقة عارية، والمنطقة العارية هى المنطقة التى يقل فيها العمق حتى تظهر الشعاب المرجانية التى تعمل على صد أمواج البحر ... يلجأ الصيادون إلى تلك المناطق العارية التى لا يتوافر فيها الصيد، مضحين برغبتهم العارمة فى الصيد اتقاءً لغضب البحر الذى لا يقوى عليه أحد. جربنا الصيد فى تلك المنطقة التى لجأنا إليها على سبيل التسلية، لم يظفر أحد بشئ كما هو متوقع، ولكن بعد فترة ليست بطويلة توالى رزق الصيد على سنارتى مما أثار دهشة الجميع، ومما زاد من دهشتهم أن ظفرت سنارتى بسمكة ضخمة من نوع الناجل مما لا يتوقع صيده فى تلك المناطق الضحلة، فكيف حدث ذلك؟ ما حدث هو أننى ألقيت بسنارتين تتدليان من نفس الخيط الذى أسقطته فى هذا الماء الضحل ... علقت بإحدى السنارتين سمكة صغيرة مما هو متوقع صيده فى تلك الأماكن الضحلة ... وبينما كنت أجر خيطى لأرفع تلك السمكة الصغيرة شعرت بضربة هائلة أعاقت جر الخيط وأثقلته حتى ظننت أن السنارة الأخرى قد علقت بصخرة أو شعبة مرجانية، ولكننى شعرت بحس الصياد أن هذه ليست بصخرة وإنما سمكة ضخمة؛ لأنها كانت تقاوم. فما الذى حدث بالفعل؟ صادت إحدى السنارتين سمكة صغيرة كما هو متوقع، وبينما كنت أجر خيطى لأرفعه إلى سطح القارب، هجمت سمكة ضخمة من نوع "الناجل" لتلتهم تلك السمكة الصغيرة، فعلقت تلك السمكة الضخمة بالسنارة الأخرى التى أصبحت عارية بعد أن التهم طعمها أسماك الصغيرة للغاية المتواجدة فى تلك الأماكن الضحلة. ولكن كيف يمكن أن تعلق مثل هذه السمكة الضخمة فى سنارة صغيرة مهيئة لصيد صغار الأسماك، كما أنها لا يمكن أن تخترق الجلد السميك لمثل هذه الأسماك الضخمة. ما الذى حدث؟ ...ا نجحت فى رفع تلك السمكة ...ثلة إلى سطح القارب بمساعدة بعض الصحبة ...ط دهشة الجميع... لاحظنا أن السنارة الفارغة علقت بتلك السمكة الضخمة من خلال فتحة

الذى لا يأكل بعضه بعضًا، وإنما يغازل بعضه بعضًا. كذلك رأيت فى عالم الحيوان مشاعر رقيقة لا مثيل لها إلا فى عالم الإنسان. ففى إحدى الرحلات التى صحبت فيها صلاح الطويل لأجل صيد الحيوان، لم استطع أن أواصل معه تجربة صيد الحيوان التى احترفها أيضًا، حتى إنه جمع كثرة من الحيوانات التى قام بتحنيطها، واحتفظ بها فى منزله الصغير بحى السيدة زينب: صقور نادرة وذئاب ورءوس غزلان. تلك المرة التى صاحبته فيها كانت لأجل صيد الغزلان ... قصدنا وادى الدوم الواقع بعد العين السخنة والذى كان حافلاً آنذاك بالحيوانات البرية. مكثنا طويلاً فى أحد المواقع حتى لاح لنا غزال يتهادى متمخترًا ... أطلق صلاح الطويل طلقته الأولى من بندقيته الخرطوشية، فأصاب الغزال فى إحدى ساقيه الأماميتين، حتى إنه تسمر فى مكانه لا يقوى على الحراك. تهيأ صلاح الطويل لإطلاق الخرطوش الثانى الذى من المتوقع أن يقضى على الغزال ... تعود صلاح الطويل على القسوة، حتى ظننت أنه لم يعد يعبأ بالعواطف أو المشاعر، ولم يعد يفرق بين صيد سمك القرش وصيد الغزال! ولكنى وجدت صلاح الطويل فى ذلك اليوم على غير ما عهدته ... تسمر هو الآخر فى مكانه ولم يقو على إطلاق طلقته الثانية الحاسمة ... تأملت المشهد وعرفت السبب: لقد تسمر الغزال فى مكانه، واتجه ببصره ناحيتنا، ونظر إلينا وكأنه يعاتبنا ويتساءل: لماذا؟ ثم رأينا فى عينه دمعة. لا أنسى تلك النظرة، ولا تلك الدمعة.

●●●

لا تعرف الأسماك نظرة عتاب ألمها ولا دمعة عينيها، نظرتها واحدة لا تتغير، تبدو وكأنها تتجه إلى اللاشىء!

لا تعرف الأسماك تلك النظرة ولا تلك الدمعة، نظرتها واحدة لا تتغير، تبدو وكأنها تتجه إلى اللاشىء. وفضلاً عن ذلك، فإن الأسماك، حتى إن كانت من نفس النوع، لا تتورع أن تأكل بعضها بعضًا. ولذلك فإننا لا نتعاطف مع الأسماك مثلما نتعاطف مع كثير من الحيوانات. بعض أنواع الحيوانات البحرية فقط تشعرنا بأنها قريبة منا كالدلافين، إنها تدرك وتعى وتشعر؛ ولذلك تنشأ بينها وبين البشر علاقة ما، إنها أليفة تعرف معنى التعاطف وتستشعره.

ووسط دهشة الجميع... لا حظنا أن السنارة الفارغة قد علقت بتلك السمكة الضخمة من خلال فتحة التناسل لديها، وهى فتحة لينة يمكن أن تخترقها تلك السنارة فتعلق بالسمكة على نحو لا يمكنها من الإفلات، ولكن كيف علقت السنارة بتلك الفتحة الصغيرة دون سواها من جسم السمكة؟ لا تفسير لذلك ... إنها مجرد مصادفة بحتة نادرة، إنها رزق ونصيب لا تفسير له! إذ كان الصيد الذى حظيت به فى ذلك اليوم غير المواتى يماثل ذلك الصيد الذى أحظى به فئ أفضل الأيام المواتية للصيد، ولم يحظ بهذا أى من أصحابى رغم أنهم جميعًا من محترفى الصيد!

●●●

قال لى أحد المتحذلقين يومًا إنه لا يجد فى الصيد أية متعة؛ لأنه نوع من القتل؛ ومن ثم فهو ضد الأخلاق! طالما تأملت هذا الأمر، وطالما أشفقت على السمكة التى اصطادها وهى تلفظ أنفاسها. ولكن ما كان يعزينى دائمًا هو شعور خفى بأن الوجود فى مجمله قائم على التهام بعضه بعضًا كى يبقى؛ فالحيوان يتغذى على النبات، ويتغذى على بعضه بعضًا، ويأتى الإنسان فى النهاية ليتغذى عليهم جميعًا، وذلك بعض من حكمة الحياة: الصراع والتدافع الموجود فى كل مكان الذى أطلعنا عليه شوبنهاور قبل داروين. ولكن الأسماك تختلف عن غيرها من الأنواع الحيوانية فى أنها تفتقر إلى التمييز، ويمكن للنوع الواحد منها أن يأكل كبيره صغيره. هذا لا يحدث غالبًا فى سائر الأنواع الحيوانية، بل إنه لا يحدث حتى فى عالم الطيور الأليفة. فى إحدى المرات صحبنى صلاح الطويل فى رحلة لصيد الحمام؛ إذ كان يجيد كل ألوان الصيد: قام باختبارى وتدريبى فى البداية على القدرة على التنشين ببندقية الصيد ... أبليت بلاءً حسنًا أثار إعجابه (وكان هذا راجعًا لما تعلمته من مهارة التنشين خلال فترة تجنيدى بالجيش)، ومع ذلك فإننى لم أجد متعة على الإطلاق فى صيد الحمام، ولم أقو على صيده .. ذلك الكائن الرقيق وتعى وتشعر؛ ولذلك تنشأ بينها وبين البشر علاقة ما، إنها أليفة تعرف معنى التعاطف وتستشعره. ومع ذلك فإن الأسماك جميعًا لا تخلو من الشعور الفطرى والإحساس بالحياة وبخطر الموت الذى يهدد هذه الحياة. عرفت هذا من خبرة الصيد: عرفت أن كل نوع من الأسماك له طريقته الخاصة فى المقاومة، حتى إننى بت أعرف نوع السمكة التى اصطادها، ليس فقط من أسلوب التهامها للطعم، وإنما أيضًا من أسلوب مقاومتها أثناء جرها إلى السطح: سمكة المرجان تشد الخيط بقوة إلى أسفل، حتى إنك تجد ذراع ماكينة الصيد الذى يتدلى منه الخيط قد انثنى وتقوس بحيث يتجه رأسه دائمًا إلى أسفل وكأنه يريد أن يلامس صفحة الماء أو يغوص فيه. نوع آخر من الأسماك يتجه مسرعًا إلى أعلى؛ لأنه يريد أن يستبق حركتك فى سحب الخيط إلى أعلى لكى يكون حرًا فى محاولة التملص من السنارة، من أسماك البحر الأحمر التى تسلك هذا المسلك نوع يسمى "مِحسنة". تسلك سمكة "الباركودا" نفس المسلك، ولكن بهدف قطع الخيط من أعلى بحكم ما لها من أسنان حادة قادرة على قص هذا الخيط بقضمة واحدة متى بلغته؛ ولذلك فإن الصياد الماهر يجب أن يسرع فى سحب الخيط بسرعة تفوق سرعة سمكة البراكودا، وهذا يتوقف على خبرته التى تتيح له التعرف على نوع السمكة التى علقت بسنارته. ومع ذلك، فإن الأسماك جميعًا لديها معرفة حسية تتيح لها الإحساس بخطر الموت الذى يتهددها: وهذا هو السبب فى أن مقاومة الأسماك تتزايد تدريجيًا أثناء جرها باتجاه سطح الماء. تبلغ هذه المقاومة ذروتها قرب السطح، فتلك هى اللحظة التى تبلغ فيها قوة السمكة أقصى درجات عنفوانها، ولذلك فإنها أيضًا اللحظة التى تتعاظم فيها قدرة السمكة على الإفلات وتحرير نفسها من الشرك الذى وقعت فيه. من الذى علم السمكة ذلك؟ إنها إرادة الحياة المحركة لكل موجود حى كما علمنا شوبنهاور.